Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 35:2 (2000)

تعليق على مقالة الأستاذ الطيب زين العابدين حول نظرية صدام الحضارات

محمد الغزالي

إن الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله وعلى كل من والاه

أما بعد فإن مقالة الأستاذ الفاضل الدكتور الطيب زين العابدين قد عالجت موضوعا شغل اهتمام الأكاديميين شرقا وغربا منذ سبع سنين حينما أصدر الأستاذ صموئيل هنتنكتن أطروحته المعروفة باصطدام الحضارات وقد أجاد الأستاذ الطيب زين العابدين في تلخيصه البارع لفكرة الأطروحة الأساسية كما أصاب فكره الوقاد صلب هذه الأطروحة ألا وهو اضطراب الولايات المتحدة وخوفها من القوة المتصاعدة للصين في مجال السياسة العالمية بحكم نفوذها المتزايد في حقل الاقتصاد الدولي وإنجازاتها الجبارة في مجالات العلوم والتكنولوجيا. ولا يشك أي مطّلع على أمور السياسية العالمية ولا يكاد يتردد في التنبؤ

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

تمستقبل زاهر وتفوّق باهر للصين في سياسة العالم وسباق العلوم والتكنولوجيا وقد ظهرت بوادر هذا المستقبل في انضمام الهونك كونك إلى الصين واعتراف العالم المتزايد حول كون تائيوان وجزيرة مكاؤ جزءا من الصين كما يعلم الجميع أن للصين جالية عالمية منتشرة في أنحاء العالم وأرجاء المعمورة من بلاد أمريكا إلى أوشيانيا وإنها الدولة الوحيدة في المخيم الاشتراكي التي حافظت على قوتها وتماسكها وتضامنها القومي وفي نفس الوقت دبرت قيادة الصين استراتيجية حكيمة لانتقالها المتدرج المتأني من الكليانية إلى اقتصاد السوق الحرّ.

فهذا هو اضطراب الأوساط الرسمية في الولايات المتحدة الأمريكية ومما يزيده شدة هو خوفها من إمكانية ظهور كتلة اقتصادية بين هذه الدولة الشرقية الكبرى التي يعيش فيها ما يقارب خمس سكان العالم بأسره، ودول آسيا الوسطى الستة وباكستان وإيران وأفغانستان.

وإمكانيات ظهور هذه الكتلة تزداد حينما ننظر إلى وجود الموارد الطبيعية الغنية في هذه الدول وتوفر الوسائل الاقتصادية الهائلة فيها إلى جانب قدراتها الفنّية ومهاراتها العلمية وخبراتها التكنولوجية الوافرة. فيوجد في هذه المنطقة جميع العوامل التلقائية التي تقتضي إيجاد تعاون اقتصادي وتناسق تجاري فتتوفر عبر إيران وأفغانستان وباكستان أقصر الطرق وأرخص الوسائل لنقل البضائع والمنتجات إلى العالم عن طريق البحر الهندي. وهذه المخاوف التي تشغل خواطر القيادة الأمريكية وحلفائها الصهانية والهنادكة وغيرهم من مواليهم، هي التي تفسر إلى حدّ كبير استمرار الفوضى في أفغانستان وإحداث المشاكل

بينها وبين إيران من حين إلى آخر بإشعال نيران العصبية الطائفية بين الشيعة وأهل السنة وهي التي تفسر الأعمال الإرهابية الدامية التي شهدتها مدينة كراتشي الآمنة منذ سنين عديدة وذلك لكونها الميناء الباكستاني الرئيسي ولكونها أيضا القاعدة الاقتصادية الأساسية لباكستان.

إن هذه الأطروحة في الواقع تمثل التفكير الموجود لدى الأوساط الرسمية المسئولة عن القرار التنفيذي والإرادة السياسية في النظام الأمريكي. وبحكم مكانة الأستاذ سموئيل هنتنكتن في المؤسسات التي تعني بتخطيط السياسة الأمريكية - لا غرابة في استنتاج الأستاذ الطيب زين العابدين أن هذه الأطروحة بمثابة تصريح أو تلويح لاتجاهات للسياسة الأمريكية المستقبلية وأهدافها المتوقعة. ولكن هناك جانب آخر لهذه الأطروحة لا تقل أهمية وخطورة من هذا الجانب العملي الواقعي الذي أشار إليه الأستاذ الطيب زين العابدين وكشف الغطاء عن معالمه وأبعاده بكل وضوح ومهارة. وهذا الجانب الاخر هو الجانب النظري والعلمي البحت الذي يمثل العقلية والنفسية الغربية عامة والأمريكية خاصة والتي تمخضت منها هذه الأطروحة.

والذي يجب علينا أن ننتبه إليه هو هذا الجانب النظري والخلفية العقلية لهذه الأطروحة وينبغي لنا التفكير الجاد في الموقف الإسلامي الصحيح إزاء هذه الأطروحة. فنحن المسلمون نحمل رسالة خالدة - ونحن مكلفون بحكم عقيدتنا والتزامنا الديني والأخلاقي بتوجيه هذه الرسالة إلى الإنسانية على الدوام- وهذا الأمر يفرض علينا أن نتخذ

موقفا واضحا بيّنا من كل اتجاه يظهر في الفكر والسلوك الإنساني وذلك لأن علاقتنا الحقيقية بالعالم البشري ليست علاقة منافسة ومخاصمة مستمرة بالضرورة ولو حاول الطرف الآخر أن يحوّله إلى عداء دائم أو يُلبس هذه العلاقة الإنسانية ثوب المخاصمة والمنازعة المستمرّة ولكن تعاليم ديننا الحنيف ونصوص القرآن والسنة الصريحة لا تتصور العلاقة بين الأمة الإسلامية والأسرة البشرية على أنها تقوم على الخصام على الدوام بل إنها تتصور هذه العلاقة على أنها مبنية على الإخلاص لله ولرسوله وللمؤمنين والنصيحة للإنسانية قاطبة. فإن "الدين النصيحة" كما صرّح بذلك حامل هذه الرسالة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهناك دلائل كثيرة في أحكام هذا الدين وشواهد عديدة في تاريخ هذه الأمة التي تبرهن على أن أهل الإسلام كثيرا ما تنازلوا عن جميع المطالب وألغوا كل العداء مع ألد الخصام، سرعان ما دخل الطرف الآخر في دين الله. وكثيرا ما شهد التاريخ أن الذي دخل هذا الدين واعتنق رسالته مهما كان جنسه ولونه وعرقه قد سبق الأتباع الأولين وفاقهم وأخذ منه زمام المبادرة في خدمة هذا الدين واعلاء كلمة الله، فالعرب سلّموا زمام القيادة إلى أهل الشام وهم إلى أهل العراق، وهم إلى أهل مصر وهم إلى الأتراك وهم إلى أهل ما وراء النهر وأهل الأندلس وأهالي الهند وهلّم جرّا – ولم يكن هذا الدين وثقافته وحضارته ودولته حكرا لأي عرق دون الأعراق الأخرى كما لم يكن السعي في خدمة مقاصده بالاجتهاد والجهاد والتجديد

والإصلاح والدعوة والتربية محصورا على جنس دون سائر أجناس البشرية في أي عهد من عهود التاريخ الإسلامي الزاهر.

فلذلك نحن المسلمين ملزمون بأن نقول قولنا في الناحية النظرية البحتة لهذه الأطروحة أيضا ولكل الأطروحات التي تعرض مستقبلا من أية جهة وفي أية بيئة والتي من شأنها أن يشغل تفكير الناس ويثير اهتمامهم العلمي أو العملي. وإن ديننا الحنيف لهو دين تحيط تعاليمه بجميع أبعاد الوجود الإنساني ويغطي توجيهاته كافة جوانب الحركة التاريخية الحضارية للأسرة البشرية. كما أن هذا الدين يوجه فكر الإنسان وسلوكه في كل ما يواجهه من مشاكل وإمكانيات في حاضر الزمن ومستقبله - فلذا نقول: إن لنا رأيا في كل أمر وموقفا من كل قضية وإن لنا مقالا في كل مقام! ولا نستطيع أن نتخلى عن واجبنا الأساسي في اتخاذ موقف إسلامي سليم من كل اتجاه فكري و عن وظيفتنا الرئيسية في صياغة منطق إسلامي حكيم يستوعب كل جوانب السلوك البشري ونزعاته - لأننا خير أمة أخرجت للناس - وأمة الإسلام هي أصبحت خير أمة لأنها أخرجت للناس ولو كانت أمة أخرجت لذاتها لما كانت خير أمة كما كان حال الأمم الغابرة في القرون الخالية.

ولبيان موقف الإسلام من المعطيات الأولية والمسلمات الأساسية لأطروحة الأستاذ سموئيل هنتنكتن ولجميع التصورات والنظريات المماثلة التي تطرح من حين إلى آخر من الأوساط الأكاديمية الغربية أقول أن الفكر الغربي بصورة عامة ظلت رهينة لمجموعة من

التصورات المعينة بحكم تجربتها التاريخية الخاصة مع الكهنوت خلال ما يسمى بالقرون الوسطى و أيامها مع الإقطاعيين والأنظمة الإمبراطورية. فالشعوب الأوروبية وجدت نفسها في صراع عنيف مع هذه القوى الظالمة في القرون المظلمة و لم تجد سبيلا إلى الخروج من حياة الذل والهوان والحرمان والخسران إلا بعد خروجها على سلطان هذه القوى المتحالفة بعضها مع بعض وبعد الطغيان عليها وعلى أفكارها الجامدة الخامدة المتحجرة – وقد بحثت الشعوب الأوروبية في سبيل كفاحها للتحرر من استبداد هذه القوى، واستعبادها، عن أفكار بديلة يمكن أن تساعدها على الحد من سلطان هذه القوى ثم القضاء عليها في نهاية المطاف، فرحبت القوى المتحررة والعناصر العقلانية في أوروبا بكل فكرة ونظرية اكتشفها أصحابها وزعمت أنها تساعدهم في تقوية الحركة الوليدة لكرامة الإنسان وحقوقه ونيل حريته من جور الكهنوت أو استغلال الإقطاعيين أو استبداد الإمبراطوريات- فظهرت على الساحة أفكار دارون وفرائيد وسبنوزا ونيتشي وغيرهم وأسهمت كلها قليلا أو كثيرا على مراحل مختلفة في ملأ الفراغ الذي وجد نتيجة لرفض الأفكار الدينية القديمة.

وكانت نتائج تقبل هذه الأفكار اللادينية وانتشارها سلبية جدا في إبعاد المجتمع الغربي عن جادة الصواب واغرابه المستمر عن معظم القيم الإنسانية الدائمة التي ابتنت عليها الحضارات والثقافات منذ قديم الزمان وقامت عليها المجتمعات الصالحة المستقيمة المتزنة منذ خلق الإنسان. فرسخ في العقلية الغربية الاعتقاد الجازم بأن الدين

مهـــما كان مفيدا للإنسان في حياته الروحية والأخلاقية الذاتيـــة، إلا أنه بطبعه لا يتمشى مع التقدم والتفتح والنهضة والحريـــة والكرامـــة الإنسانية، فمن شاء أن يلتزم بدين أو يعتصم بكهنوت فليفعل وأمـــره إلى نفسه،وأما الحياة الاجتماعية العامة والأنشطة العلميـــة والفكريـــة والمؤسسات السياسية والإدارية والاقتصادية فلن تتحقق أهدافها ولـــن تتقدم خطوة إلى الإمام نحو النهضة والتقدم والاستنارة إلا إذا تحـــررت تماما عن عبودية الكهنوت وسلطة القساوســـة وتصـــورات الديـــن والغيبيات.

وهذه الخلفية الخاصة لتطور الفكر الإنساني الغـــربي الـــذي لم يدخل عهد التقدم والتحرر إلا بعد سقوط الوصاية الدينية علـى الإرادة الإنسانية جعلت هذا الفكر متسما ببعض مزايا وخصائص لم تتخلـص التشكيلات الثقافية الغربية منها إلا الآن.

ولنقف هنا ونتساءل: ما هو الموقف الإسلامي الصحيح الـــذي يجب أن نقفه إزاء هذا الفوضى الفكري الذي طغى على نفسية الفـــرد وعقلية المجتمع الغربي؟ فإننا مطالبون بحكم رسالتنا الحضارية ومسـؤليتنا الدينية في الشهادة على الناس أن نبين موقفنا من هذا الصراع الفكـــري ونحدد وجهة نظرنا حول مفهوم الحضارة ذاتها لأن سياسة الانطـــواء والتقوقع والاكتفاء بالذات لا تليق بهذه الأمة الوسط. وحينما نتكلـــم عن الحضارة الانسانية من وجهة نظر التعاليم الإسلامية فيمكن تعريفها كالآتى:

" إنها حصيلة الجهود العملية وذخيرة الأفكار العلمية وخزانـــة التصورات الجمالية وكنـــز التطلعات الروحية التي تهـــدف إلى إقامـــة

السلام وإنشاء العلاقات بين الجماعات البشرية على أساس العدالة وإعطاء كل ذي حق حقه لأجل تحقيق السلام والنهضة والمصلحة الإنسانية على أساس القيم الأخلاقية الدائمة المشتركة".

وإذا كان هذا هو التصور الإسلامي للحضارة الانسانية فإنه بطبيعة الحال يفترض بل ويقتضي علاقة الوفاق والوئام ويتطلب إنشاء روابط التعاون والتضامن بين الأجناس البشرية والاحترام المتبادل بين الجماعات والاحتكاك المثمر بين المجتمعات والحضارات الإنسانية لاجل إيجاد أسس مشتركة من الأفكار الإيجابية والأعمال البناءة لعمارة الكون بتوفير الفرص المساوية لجميع الناس واحترام آراءهم وتقدير جهودهم الجادة، وذلك بتهيئة البيئة الملاء مة لترقية العبقريات الإنسانية وتنمية الوسائل الطبيعية وتسخيرها لخدمة الأهداف الحضارية ونيل الغايات الأخلاقية السامية المشتركة بين الإنسانية قاطبة.

أما الفكر الغربي الذي يتمثّل تيّاره الرئيسي في الكتابات المعاصرة أمثال هنتنكتن وفوكوياما وكسنجر فنجد أن أغلب ما يحتوي عليه هذه الكتابات ما زال أسيرا لافتراضات ومزاعم وتشكيلات تطورت وتبلورت في السياق التاريخي الخاص للمجتمع الأوروبي. وأهم هذه الافتراضات هي:

١-الافتراض الأساسي هو أن الدين قد انقضى عهده في سالف الزمان فالعقيدة والغيبيات والإلهيات إن هي إلا آثار باقية عن القرون الخالية وقد تعدى التاريخ الإنساني هذا العهد "المتخلف" "البدائي" "المظلم" وبعد مروره بمراحل حاسمة قد دخل حتما مرحلة

"التنوير" "والعلم"و"التحرر" الكامل لا يمكن أن يتراجع عنها ولـــذا لا يتصور الآن أي تقدم أو نهضة للإنسانية ولا يمكن التجـــاوب مـــع تغيرات الزمان والمكان بدون التحرر الكامل عن الديـــن والتخلـــص المطلق عن كل ما يتعلق بالورائيات والغيبيات والروحيات.

٢- إن هذه الحياة وريثة التطور المادي الطبيعي العشوائي وهي وليـدة الصراع بين الأنواع وهذا الصراع كما جاء بيانه في نظريـــة دارون، يقوم على بقاء الأصلح وتغلّب الأقـــوى - وكـــان لنظريـــة دارون انعكاسات بعيدة المدى على أخلاقيات النـــاس في المجتمـــع الغـــربي وسلوكياتهم فهم بقبولهم لهذه النظرية الشيطانية خرجوا نهائيـــا مـــن سيادة فكرة الألوهية ومركزيتها في نظامهم الفكري وحرّروا أنفســـهم تماما من جميع المبادئ والقيم الأخلاقية الدائمة. وقد تكيفـــوا بفكـــرة التطور ونتائجها المنطقية في حياتهم العامة ونزعاتهم النفسية و ميولهـــم الاجتماعية وبدأوا ينظرون إلى الحياة الإنسانية كأنها عبارة عن صـــراع وتنافس وتسابق دائم ومستـــمر ـــ ولم تبق ـــ عندهم سنة للحيـــاة إلا أن الأقوى هو الأعلى وله حق التغلب والهيمنة على الجميع بحكـــم قوته وأما الضعيف فهو محتوم الهلاك أو مقدر الاستسلام أمام القـــوي الغالب المسيطر طوعا أو كرها.

٣- ومن بطن هذه النظريات تولدت الفكرة القومية التي قســـمت الأسرة البشرية إلى أقوام متصارعين متنازعين على الدوام لأن الأنانيـــة والحرية والإباحية المطلقة للفرد انتقلت تلقائيا ومنطقيا إلى أنانية وحرية وإباحية مطلقة على صعيد الأقوام والأمم ـــ فكما أصبح الفرد أنانيـــا

مغرما بذاته منهمكا في تحقيق مصلحته الذاتية منطويا على نفسه مشغوفا بعاجل حظه، كذلك أصبحت الجماعات والأقوام والأمم أنانية في علاقات بعضها مع بعض، ولذا نرى أنه مع كل هذا الكلام والثرثرة في الإعلام عن السلام والتقدم والتنور لقد كثر الجدل واشتد النزاع ودارت رحى الحروب على نطاق لم يسبق له نظير في التاريخ الإنساني فعدد القتلى والجرحى الذين لقوا مصرعهم ومصيرهم في هذا القرن الفائت، يكاد يتجاوز عدد القتلى والجرحى في جميع أحقاب التاريخ البشري المعلوم. ولذلك حينما قال كلنتون مؤخرا وهو يخاطب الشعب الباكستاني "إن هذا الزمن لا يرحم الضعيف" فكان صادقا في مقولته هذه على الأقل وإن كان كاذبا في أكثر أقاويله وادعاءاته.

ولذلك أيضا لا نجد في العلاقات الدولية الراهنة ونشأتها وحركيتها وطبيعة نشأتها أي التزام بالمبادئ الأخلاقية ومن الطبيعي أن نجد أن أكثر الأمم خسارة على أيدي الحضارة الغربية المستكبرة هي أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المرحومة التي قامت على أساس راسخ من الالتزام الأخلاقي وليس لكيانها أي بنيان آخر إذا ما تخلت هذه الأمة وأفرادها وأولوا الأمر فيها من أداء رسالتها الأخلاقية وتحررت مجتمعاتها ومؤسساتها من التزامها الديني والأخلاقي، نعوذ بالله من ذلك.

فالخلاصة أن ما جاء في كلام هنتنكتن ليس بدعا من الحديث وليست نظريته من الغرابة بمكان. ولكن بالرغم مما قيل ويقال عن هذه

النظرية والسياسة التوسعية العدوانية الكامنة في هذه الأطروحـــــة، لا ينبغي في رأيي ـــ والله أعلم ـــ أن نكون عرضـــة لهـــذا التفكـــير الصراعي الذي يؤكد ويبثّ ويحثّ دوما على إيجاد أشكال واخـــتراع ألوان جديدة من الصراع الجدلي والنـــزاع والحروب والمقاتلة بين بني آدم فإن هذا ما يملي عليهم تفكيرهم المنحرف وهـــــذا مـــا تتطلبـــه مصلحتهم المادية الأنانية من بيع الأسلحة وإشعال نـــيران الحـــروب وغيرها بل يجدر بنا ويليق ـــ ومن ذا الذي يكون أليق منا وأجـــدر ـــ بأن نرفع رأية السلام و نناشد التزام الحق والعدالة وندعو بالاعتمـــاد على أنفسنا والإيقان بعقيدتنا إلى مواصلة الحوار الإيجابي البنّـــاء بـــين جميع الناس من الحضارات والمجتمعات المتعددة على اختلاف ألوانهـــم وألسنتهم فهم في نظرنا كلهم عيال الله وكلهم خلقوا من أبويـــن و لم يجعلُهم الله شعوبا وقبائل إلا ليتعارفوا حتى يتسنى لنا أن نقـــوم بـــأداء رسالتنا الخالدة في دعوة الناس إلى سبيل السلام والصـــراط الســـوي بالإخلاص لله والنصيحة لعيال الله وهذا هو أصـــل الديـــن الحنيـــف وجوهر رسالته الخالدة وهذه هي الغاية السامية التي دعا إليها الأنبيـــاء والرسل وختم بها الله رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.